لو سألنا التاريخ : ما هي السريّة التي بسطت هيبة الدولة الإسلامية في شمال الجزيرة ، وكسرت عصا التمرد التي طالما أشهرتها بعض القبائل العربيّة الموالية للروم ، وكانت أيضاً سبباً في إسلام الكثير من أهالي بني مرة ، لأجابتنا بدون تردد : إنها سريّة ذات السلاسل ، هو إحساس النبي - صلى الله عليه وسلم - بالخطر المحدق بهم جرّاء التحركات المريبة التي تقوم بها قبيلة قضاة ، والتي تنبئ عن وجود محاولات حثيثة للهجوم على المدينة وتطويقها .ومن هذا المنطلق أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالنفير ، على الرغم من عودتهم القريبة من معركتهم في مؤتة ، ولم يمض وقت طويل حتى كان ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار على أهبة الانطلاق .وبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى عمرو بن العاص قائلاً : (خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم اثنتي) ، فاتاه رضي الله عنه وقد لبس عدة الحرب ، فقال له : (إني أريد أن أبعثك على جيش ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة) .لقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يستفيد من الخبرات القتالية لعمرو بن العاص رضي الله عنه ويتألف قلبه في الوقت ذاته ، فلم يمض على إسلامه وقت طويل ، لكن إجابة عمرو رضي الله عنه كانت تعكس رسوخ إيمانه ويقينه فقد قال : " يا رسول الله ، وأن أكون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فتهلّل وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - بشراً وقال له : (يا عمرو ، نعم المال الصالح للمرء الصالح) رواه أحمد .وسار الجيش الصغير بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه مستحضراً وصايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي كان يوصي بها البعوث ، وفي أثناء ذلك مرّ بموضع ماء يقال له " السلسل " ، ومن هنا جاءت تسمية هذه السريّة (ذات السلاسل) .وترامت الأنباء إلى عمرو رضي الله عنه بالأعداد الكبيرة التي سيواجهها جيش المسلمين ، وحينها أدرك أن المعركة لن تكون متكافئة ، فأرسل رافع بن مكيث الجهني رضي الله عنه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يطلب المدد ، فبعث إليه بمائتي صحابي تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وبصحبة أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب ، ووصلت الإمدادات إلى جيش عمرو بن العاص رضي الله عنه فتلقاهم المسلمون بالفرح الشديد ، وسار الجميع على نحو بالغ الحذر حتى لا يتمكّن العدو من رصد تحركاتهم ، فكانوا يتابعون السير تحت جناح الظلام فقط مع الاختفاء في أوقات النهار .وفي إحدى الليالي حاول بعض المسلمين إشعال النيران ليقنوا بها شدة البرد ، فنهاهم عمرو رضي الله عنه عن ذلك أشدّ النهي ، وهدّد من يخالف أمره أن يلقيه في النار ، فشكى الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه شدة عمرو ، فذهب إليه وكلمه ، لكنّ عمر رضي الله عنه أصرّ على رأيه ولم يتنازل عنه ، وعندما وصل الجيش الإسلامي إلى وجهته صال وجال موجّهاً ضرباته المؤلمة على قضاة ومن معها ، ولم يطل صمود الأعراب كثيراً فبادروا بالفرار ، وتأهب الصحابة لمتابعة فلولهم ، لكنّ عمرو بن العاص رضي الله عنه منعهم من الإقدام على ذلك ، وأصدر أوامره بالعودة ، فأطاعه المسلمون على مضض .ثم جاء الموقف الثالث الذي أثار حفيظة البعض ، وذلك حينما تيمّم عمرو بن العاص رضي الله عنه بدلاً من اغتساله للجنازة ، ولم ينجح أحد في كشف الغموض المحيط بتلك المواقف .ووصل الناس إلى المدينة ، وكان أول ما فعلوه هو الذهاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشكون إليه ما فعل بهم عمرو بن العاص رضي الله عنه في أثناء رحلتهم ، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عن السبب الذي دعاه إلى فعل كل ذلك ، فبيّن أن منعه من إيقاد النار كان لأجل ألا يرى العدو قلّة عددهم فيطمع فيهم ، وأن إصراره على عدم مطاردة العدو بسبب مخافته أن يكون الهروب مجرد كمين منصوب لهم ، وأن امتناعه عن الاغتسال بالماء كان استناداً إلى قوله تعالى : { ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً } (النساء 29) ، وقد خشى على نفسه أن يهلك من شدة البرد ، فأعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - بذكائه وحنكته ، ومع ما حققته هذه المعركة من أهداف على الصعيد الميداني ، فقد أسهمت كذلك في إبراز عمرو بن العاص رضي الله عنه كشخصيّة فذة ، كان لها دورها في الفتوح الإسلامية بعد ذلك .